مجالي الفكر

الحديث

في الفلسفة والعلم والسياسة

١ — مرشد لفلسفة الاخلاق والسياسات[1]

الاستاذ جود عميد قسم الفلسفة وعلم النفس بكلية بير كبك بجامعة لندن كاتب قدير ومفكر ممتاز وفي الرعيل الثاني من ممثلي الفلسفة الانجليزية في العصر الحديث ولعله أقدرهم جميعاً على ترويض الجموح وتذليل الصعب من المشكلات الفلسفية ، وللرجل نزعة كريمة ترمي الى اذاعة الفلسفة وتقريبها الى الافهام وجعل الاهتمام بها عاماً شاملاً غير مقصور على فئة قليلة من أساتذة الجامعات وطلاب العلم ، وقد وفق الى حد كبير في ادراك غايته وتحقيق برنامجه واعانه على ذلك بلاغة أدائه وبراعة أسلوبه ومقدرته الفائقة على التبسيط والتيسير ، وهو لا يلتزم في كتاباته الجد الصارم والوقار الملتزمت الذي يصطنعه بعض كتاب الفلسفة وانما يسبغ على كتبه بطريف ملاحظاته مسحة ادبية تجعل قراءتها رحلة هانئة ومتعة مستحبة

وآخر كتاب أصدره هو « المرشد لفلسفة الاخلاق والسياسات » وأخص ما يسترعي النظر في هذا الكتاب الجديد هو نزعة الاستاذ جود في عرضه للمبادىء والنظريات التي تنافر مذهبه الفلسفي الخاص وتنقض أفكاره من اساسها ، ومعظم اصحاب النظريات عندما يتصدون لعرض الآراء والمبادىء والتعاليم المخالفة لمذهبهم يمسخونها — ولو عن غير قصد — ويظهرونها في صورة تبعث في كثير من الاحيان على النفور والخلاف . وقد تجلت مقدرة جود على الاعتدال وضبط النفس عند عرض الافكار التي لا يدين بها في هذا الكتاب كما ظهرت في كتابه السابق « مرشد الفلسفة ». ولجود اطلاع واسع دقيق على تاريخ الفلسفة وهو يتتبعها الى مراحلها

---

(1) Guide to the Philosophy of Morals & Politics. By C.E.M. Joad. (Gollancz)

الاخيرة وصورها المستحدثة ويحسن العرض ويجيد التنسيق ويعرف كيف يخرج لك من المادة المتكاثرة كلاً حيًّا متصل الحلقات جيد التسلسل

وكتابه الجديد مقسم الى اربعة اجزاء ، وقد قسم كل جزء على جملة فصول تتناول شتى نواحيه ، وقد تناول في الجزء الاول الفلسفة السياسية والاخلاقية عند اليونان واسماء السياسة والاخلاق لان اليونان في تفكيرهم الفلسفي ، كانوا ينظرون الى الاخلاق والسياسة من حيث هما شيء واحد ، فمشكلة البحث عن طبيعة الحياة الصالحة للفرد ومشكلة معرفة طبيعة المبادىء التي تسيطر على اجتماع الافراد او يجب ان تسيطر على الافراد في المجتمعات كانتا عند اليونان وجهين لمسألة واحدة ، وكانوا يرون انك لا تستطيع ان توفق في علاج احدى هاتين المشكلتين دون أن تبحث الاخرى وتهتدي الى موقف خاص حيالها ، وليس في وسع انسان ان يقرر ما هو أحسن نظام للمجتمع دون ان يفكر في حياة الافراد وسبل اسعادهم،وآراء أفلاطون في هذا الصدد تطابق آراء ارسطو

وتناول في الجزء الثاني الاخلاقيات منفصلة عن السياسيات وذلك لانهُ منذ عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وصار ماكان يراه اليونان وحدة لا تنفصم عروتها فرعين مختلفين من فروع التفكير ، وقد حرص التفكير اليوناني على استدامة العلاقة بين الاخلاق والسياسة وحاول الابقاء عليها ولكن مجيء المسيحية وجعلها أساس الحياة في الحياة الاخرى،وذهابها الى ان مدينة الله هي منزل القدس وموئل الروح وتهوينها أمر المدينة السياسية مهد السبيل لهذا الانفصال ، ثم ظهرت البروتستنتية فأتمتهُ ، وتوفرت الفلسفة الاخلاقية على بحث معنى الخير والشر ومقياس السلوك الحسن والخلق الفاضل وأصل الواجب الادبي وعلل الحق والباطل من المبادىء الاساسية المستقلة بذاتها في الكون او هي مجرد أسماء يطلقها الانسان على الاشياء التي يقرها او التي لا يقرها بحسب أهوائه واتجاه مصالحه ، وهل الحق هو العمل الذي يرضي الحاسة الاخلاقية او هو الذي ينبعث من ارادة خيرة او مجرد العمل الذي يسفر عن نتيجة محمودة وأثر طيب ؟ واذا كان هو الذي يسفر عن النتيجة المحمودة والاثر المبرور فما هو ذلك الاثر وما معناه ؟ وواضح انهُ من الصعب ان نجاوب عن مسألة معنى الخير دون أن نبحث مسألة معيار العمل الصالح لانهُ اذا كان لنخير معنى فان العمل الصالح اذن هو الذي يزيد هذا الخير وينميه وذلك بطبيعة الحال لا يستلزم الخوض في السياسة ومعالجة مسائلها ، ومن الممكن البحث في طبيعة الواجبات والالتزامات الاخلاقية وأصلها ومصدر سلطانها دون الاشارة الى المبادىء القائم عليها الاجتماع الانساني الذي نسميه « المجتمع » وكثير من كتاب الاخلاق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أشبعوا البحث في الفلسفة الاخلاقية دون ان يدعموا آراءهم

بتوضيح تأثير آرائهم الاخلاقية من الناحية السياسية او الاجتماعية

والقارىء قمين ان يلمح من ذلك ان المسيحية انما مهدت السبيل لفصل الاخلاق عن السياسة لانها جعلت حياة الانسان الحقيقية ليست في هذه الدنيا وانما في العالم الآخر ، فالحياة الدنيا زائلة فانية والحياة الأخرى هي الخالدة الباقية ، وحياة الانسان الدنيوية هي بمثابة اعداد وتجربة وقيمتها رهن بالعناية التي يتم بها هذا الاعداد والتهيؤ ، والصالح في هذه الدنيا انما هو صالح لانهُ سدرجة الى نيل السعادة في العالم الآخر ، فليس الصالح للانسان هو الصالح للحكومة كما يعتقد فلاسفة اليونان وانما الصالح هو ما اعان على خلاص الروح واستنقاذها وهو يتحقق في أبهر صوره وأشرق مجاليه في ملكوت الله لا في مملكة قيصر وعالم الارض ، والحكومة لا تلعب دوراً هامًّا في تقريب ذلك العالم السماوي وربط اسبابنا باسبابه ، وكانت الحكومة من الناحية العملية تستلزم من الفرد بعض العناية والالتفات والمجهود الذي يحرص الفرد على بذله في سبيل الله والدنو من ملكوته ، وولاء الفرد لله كان في العصور الوسطى شديد الصلة بولائه للكنيسة ومن ثمَّ كانت هناك نظرية سياسية في العصور الوسطى تحاول التفريق بين مطالب الحكومة ومطالب الكنيسة ونشأت تبعاً لذلك فكرة السلطة الروحية والسلطة الزمنية وكان يمثل الاولى البابا ويمثل الثانية الملوك والحكام

واوقف المسترجود الجزء الثالث من كتابه للكلام عن السياسة وذلك لانهُ منذ انتهاء عصر احياء العلوم لمع في آفاق التفكير كثير من الكتَّاب تناولوا بحث السياسة منفصلة عن الاخلاق وكان مدار بحثهم اصل المجتمع والحاجات الانسانية التي نشأ منها والاهتداء الى المبادىء المسيطرة عليه ، والبحث في ضوء تلك المبادىء عن احسن صورة للمجتمع الانساني وهل الاوفق للانسان الحكم الفردي (الاوتوقراطية) او حكم الاقلية (الارستقراطية) او حكم الجميع (الديمقراطية) ؟ واذا كان الحكم الارستقراطي هو أحسن الانظمة فما هي المؤهلات التي يجب أن تتوفر في الفئة القليلة المختارة ؟ واذا كان حكم الاكثرية هو أحسن صور الحكم فما هي الاساليب التي يحسن اتباعها في انتخاب ممثلي تلك الاكثرية ؟ وما مدى السلطة التي يمنحها الناخب لمنتخبيه ؟ والغالب ان يزيد السلطة الكبرى للحكومة النيابية لا تستطيع المضي في اعمالها ، ولكن اذا منح سلطة اكثر مما ينبغي فما هو الضمان الذي يمنع من اساءة استعمال هذه السلطة ؟ وما هي حقوق الفرد في علاقته بالحكومة ؟ وما هي حدود سلطة الحكومة ؟ وهل للحكومة سلطة اكثر من السلطة المستمدة من الافراد الذين تتكون منهم ؟ لقد بحث هذه المسائل هوبز ولوك وروسو ومجل وباركي وسبنسر وغيرهم ينظروا الى علاقتها بالاخلاق

وفي الجزء الرابع يرينا المسترجود كيف عاد الفرنسان الى الالتفات في المذاهب السياسية السائدة

وهو يرى أن عودة الاتصال بين الاخلاق والسياسة من ملامح القرن العشرين البارزة وسماته الكثيرة الدلالة ، والحقيقة عنده ان السياسة متصلة بالاخلاق اتصالاً وثيقاً . والقرن العشرين على حقّ في الرجوع الى توحيدها ولكنه في الوقت نفسه يصارحنا بأن رجعة القرن العشرين الى فكرة ربط الاخلاق بالسياسة لم تخل من قلب للوضع الاصلي ولم تسلم من تشويه للفكرة القديمة وحقيقة ان الحياة الصالحة للانسان لا يمكن تحقيقها بمعزل عن المجتمع ولكن النظرة الحديثة تعتبر حياة الفرد الصالحة مجرد جزء من صلاح المجتمع وقد أدى ذلك الى مبالغات والتواءات في التفكير الحديث الذي يعتبر الفرد من ناحية كونه وسيلة لخير المجتمع ، وقد المستر جود هذا الاتجاه بتوضيح نظريته التي سبق له ان شرحها في مختلف مؤلفاته وهي ان الفرد غاية في نفسه وان وظيفة الحكومة هي ان تفسح له المجال وتعد من أجله الفرصة

وخلاصة القول ان كتاب المستر جود فضلاً عن قيمته الثمينة لدارسي الفلسفة من أحسن المراجع وأوفقها لفهم النظريات السياسية الحديثة التي تعمل وراء حوادث هذا العصر المضطرب الجائش ولا مفر لمن اراد أن يفهم العصر على الوجه المرضي ويدرك لب حوادثه وخفايا انقلاباته من الاطلاع عليه وامعام النظر واطالة الفكر فيما بين سطوره .

***

٢ — العلم والمجتمع (١)

في الاجتماع السنوي الذي عقده مجمع تقدم العلوم البريطاني في خريف سنة ١٩٣٦ ألقى رئيسهُ السر بوشيا ستانيب خطبة جعل مدارها العلم والاجتماع . ومما قالهُ فيها ان العالم او المخترع كان الى الثلث الاول من القرن الماضي ، ينتظر بعد الفوز بكشف او مخترع تأييد أمير عظيم أو ثري كبير . ولكن رجال الحكومات واقطاب المال والاعمال غدوا وهم أشد ميلاً الآن الى تشجيع الباحثين على البحث واجازتهم بغير وسيلة واحدة على ما يكشفون او يستنبطون بغية استغلال مكتشفاتهم ومستنبطاتهم . فكانت النتيجة ان الفترة التي كانت تنقضي بين الكشف والاستنباط من ناحية ، ووصولها الى مرتبة التطبيق الصناعي الواسع النطاق ، اصبحت قصيرة الآن وقد ادت الى احداث انقلابات فجائية في احوال المجتمع لضيق الوقت المتسع للتمثيل الاجتماعي والملاءمة الاقتصادية . ثم انتقل الخطيب الى بيان الهوّة التي مايرحت قائمة بين العالم والاقتصادي والسياسي . فالعالم فما يعنى بنتائج كشفه واستنباطه مع ان تمارها من أفعل العوامل

(1) Science for the Citizen, by Lancelot Hogben. Published by Allen and Unwin Ltd, London. 12/6

في حديث التحيُّز الاجتماعي ، واذا عني بها ، فغايتهُ تنحصر في الغالب في تعديد الفوائد التي تعدتها مكتشفاته ومخترعاته على الناس ، ولا تتعداها الى تبيُّن الهزّات الاجتماعية والرجّات الاقتصادية التي تحدثها . فكأن المنطقة التي تحصل فيها الهزة والرجة ، وكيف يجب ان تتقيا ، كانت منطقة حرامٌ على الباحثين . فالعالم كان يحسبها خارجة عن اطاقه الخاص . والاقتصادي قلما اعترف بأن الواجب عليه يقضي بدراسة هذه الناحية من الموضوع . والحكومات كانت تقف بعزيمة هو حديث الى ان تتفاقم العواقب . فتربية العالم كانت لا تشتمل على تبصيره بعواقب عمله من الناحية الاجتماعية . وتربية السياسي والاداري كان يعوزها تدريبهما على فهم تقدم العلم وما يقتضيه من ملاءمة الكيان السياسي والاجتماعي لهُ . فلما وقع الاصطدام انكر كلٌّ من يهمهُ الامر ان الامر من شأنه

هذا بيان الاصل الذي ترتدُّ اليه مشكلة الحضارة الحديثة مشكلة الفاقة والقلق حذاء الثروة التي يغدقها العلم ، وشبح التقتيل والتدمير ازاء ما يبدعهُ العلم للسيطرة على قوى الطبيعة المتمردة. وقد اقترحت عدة مقترحات لعلاج الداء وردم الهوّة بين العلم والاجتماع كاقتراح السربوشياستاب ان تكون العلاقة بين العلم والاجتماع ، وتأثير العلم في المجتمع ، مجالاً لبحث علمي منظم . وقد قام الاستاذ جولبان هكسلي حفيد هكسلي الكبير ببحث رائع في هذا الموضوع ضمنهُ كتاباً قيماً . الا أن الاستاذ لنسيلوت هوغبن مؤلف كتاب « العلم والمجتمع » رأى ان يتغلغل في ما هو أعمق من ذلك في دراسة هذا الموضوع ، فكتب ملخصاً للعلم غلَّب عليه في بحث تطوره التاريخي تأثير العلم الاجتماعي في مختلف العصور. فاذا قرأهُ القارىء افاد منه فائدتين الاولى حقائق العلم مبسطة تبسيطاً يرضي الخاصة والعامة ، والثانية نظرة اجتماعية شاملة لتأثير العلم في تطور الاجتماع البشري

ان الشأن الاول في نظر الاستاذ هوغبن ، هو لذلك القلق الذي يساوره من ناحية جمهور كبير آخذ في الازدياد من الشبان والشابات الذين يعلمون انهم سيكونون الضحايا الاولى لقوى التدمير الناشئة عن سوء تطبيق العلم . فالعلم كان من افعل العوامل في نشوء هذا المجتمع المضطرب والعلم وحده هو الذي يملك وسيلة العلاج . فللعلم الشاب والشابة ان اقطاب العلوم اكتسحهم التيار الاجتماعي التي كانت سائدة في العصور المختلفة . بسّط لها جهودك فوعد العلوم المختلفة . وفسر لها اسلوب البحث العلمي . ثم أجِلْ لها ان العلم ليس « القطعة المضمضة » بل « العلم المتضمض » وعندئذٍ يدرك هؤلاء الشبان والشابات السبيل الى انقاذ انفسهم وانقاذ العالم

يقول الاستاذ هوغبن ما ملخصهُ : أطلق العلم في القرن الماضي قوى جديدة للتنظيم الاجتماعي تقصر عن ادراكها وفهمها التربية السياسية التي تعودناها . فمن سبعين سنة كان في مكنتنا ان نبحث مشكلة الفاقة وهل هي مما يساغ من الوجهة الاخلاقية او مما يجتنب من الناحية المادية.

ولكن ذلك قد تغير. فالقافة اليوم ليست شيئاً يتعذر اجتنابه من الناحية المادية. والحرب ليست نزهة أخلاقية. انها تهدد بناء الحضارة بالانهيار، اذ نحن لم نستأصل شأفتها بنفس السرعة والشدة اللتين استأصلنا بهما الجدري والملاريا والحمى الصفراء

ومن الواضح أن الهدف الذي يتوخاه الاستاذ هوغبن، وهو تعليم الناس وطبع العلماء بشعور التبعة الاجتماعية، عمل عظيم الشأن وعر المسلك ولكنهُ من افراد العلماء الذين في وسعهم ان ينهضوا بهذا العمل. فقد نشأ ورسخ في دراسة علم الاحياء من الناحية الاجتماعية. وهو يعتقد أن معاهدنا العلمية لا تدرس العلم كما يجب ان يدرَّس. ثم انه علاوة على هذا وذاك بارع البراعة كلها في تبسيط العلوم واذا كان قد ادخل على فصوله بعض المعادلات الرياضية فلأنهُ يحترم ذهن القارىء. ولأنهُ يسوقهُ الى المعادلة برفق وعناية فلا يشعر القارىء عند بلوغها انهُ امام شيء إدّ في رواية أخاذة. ولذلك لا يخالجنا شك في ان كتابهُ هذا سيترك الأثر المتوخى في جمهور القراء، بل وفي جمهور اساتيذ العلوم وهو اهمُّ. لانهُ متى ادرك اساتيذ العلوم — على نحو ما بين السر يوشياستامب — انهم اعضاء في جماعة تتنازعها عوامل الاستقلال والانقلاب، فلعلهم يتحولون الى تخريج الوف من الطلاب كلَّ سنة ينطلقون في العالم حاملين رسالة العلم على انهُ « قوة اجتماعية ». ولا نستبعد بعد النجاح المرتقب لمثل هذا المؤلف ان يصبح نموذجاً لمؤلفات اخرى تنسج الى منواله

كان الغالب على الظن حتى الآن، من دراسة سير العلماء، ان الرغبة في اقتحام المجهول، واستطلاع الخفي، كان المحرِّك الاول لهم على البحث والكشف. ولكن الاستاذ هوغبن لا يرى كيف يمكن ان نفسر بهذا الرأي اختراع المضخة البخارية في الوقت الذي كانت انكلترا في أشد الحاجة الى جهاز من قبيلها لتزح المياه من مناجمها. ولا كيف قامت صناعة قطران الفحم الحجري ومركباته في المانيا، وهي البلاد التي تحتاج أشد الحاجة الى المواد الاولية مما جثم عليها ان تجني من القليل الذي ليس أعظم ما تستطيعهُ من الفائدة. والرأي عندهُ ان الضرورة الاجتماعية هي التي تملي على العالم الموضوع الذي يجب ان يتجه اليهِ وينفق فيهِ وقتهُ وجهده، وهذا لا يمنع ان يكون اندفاع العالم في هذا السبيل على غير وعي منهُ لانهُ ابن عصره متأثر بأحواله وتياراته

والاستاذ هوغبن ليس أول من ذهب هذا المذهب ولكنهُ حتماً اول عالم وضع كتاباً على هذا الاساس، كتاباً هو في الوقت نفسه تاريخ للعلم ومدخلٌ الى تفسير العلم تفسيراً اجتماعيًّا

والعلم عنده يتقدَّم عند ما تبدو في عصر ما حاجة اجتماعية لا بدَّ من الاستجابة لها، ولان ذلك العصر يكون قد جمع بين أسلوب وافر للبحث والاستكشاف والباعث عليهما

قال: — ان نصا العلم، سواء أتلخص وصفناه أم بالمطبَّق، ليست منفصلة عن حياة

الانسان . فما ندعوه علماً محضاً لا يعيش الاَّ في نظام اجتماعي يخلق للعالم مشكلات يجب حلها ويجهزه بوسائل وأجهزة لذلك الحل . فلولا الصناعة لما شعرنا بالحاجة الى المناظر (النظارات) ولولا المناظر لما كان لنا المجهر ولا المرقب . ولولاهما لما أدركنا حقيقة سرعة الضوء للطاقة وبعد النجوم باختلاف الزاوية والحيوانات الدقيقة والاختمار والاسباب الجرثومية للامراض . ولولا الصناعة ذات الرقّاص والتذبذبة لما كان علم الحيل (ديناميكس) ولا نظرية الصوت . ولولا علم الحيل الناشيء من الرقص والتذبذبة لما كان كتاب المبادىء (برنسيبيا الذي وضعهُ نيوتن) . ولولا التعدين تحت أطباق الارض لما شعرنا بالحاجة الى دراسة ضغط الهواء والقهوية والانفجار

ويمكن ان يقال بوجه عام ان كتب العلم العامة تحتوي على فصول لا رابط بينها — فصل في الطبيعة وآخر في الفلك وثالث في الكيمياء ورابع في الاحياء وهكذا ، كأن كلاً منها علم نشأ على حدة نشوءاً مستقلاً . ولكن ذهن الاستاذ هوغبن ذهن فيلسوف يهوى التركيب . وهو يميل الى الاخذ بالصور الذهنية العامة التي توجّه الموضوع . ولاسيما الصور والمبادىء الاجتماعية . فاقبالهُ على كتابة مؤلف في العلم من الناحية الاجتماعية ، يسبغ على فصول كتابهِ وحدة واتساقاً فنرى العلوم المختلفة فيهِ وهي سائرة في طريق الارتقاء جنباً الى جنب

والكتاب خمسة اقسام اولها القسم الذي عنوانهُ « غزو الوقت والقياس » وفيهِ يتناول الساعات والتقاويم والفلك والهندسة والملاحة والميكانيكا من الناحيتين التاريخية والفنية . ويليهِ « غزو المواد » وهو يتناول نشأة الكيمياء الحديثة وردّ اصولها الى حاجات المعدنين والنساجين . ثم القسم الثالث وعنوانهُ « غزو القوة » وهو يبحث في نشأة الطاقة الميكانيكية والكهربائية ولكنهُ بحث مرتبط باحوال الاجتماع الرأسمالي والثورة الصناعية التي أحدثها المحرّك البخاري . ثم القسم الخاص بغزو « الجرح والمرض » ونعدُّ خير الفصول جميعاً لان الاستاذ هوغبن اخصائي في نشأته واخصائيٌّ اجتماعي في نزعته وعمله . هذا فصول متتالية محبوكة تشمل علوم الاحياء والطب والتطوّر تعضوي من الوجهتين العلمية الفنية والاجتماعية . ثم اخيراً القسم الخاص بغزو « السلوك » وفيهِ يعالج الجهاز العصبي المركزي وعلم النفس ويشرح سلوك الانساني وبواعثهُ . ويختم الكتاب بفصل يجمل فيهِ المؤلف نسمة الاجتماعية وتشيُّع بحوثهِ

وليس بعيد ان يكون أثر هذا الكتاب وما ينسج على منوالهِ كأثر « الانسكلوبيدي » التي قام ديدرو على وضعها في القرن الثامن عشر . فلقد ضمَّنهُ الاستاذ هوغبن زبدة المعارف العلمية التي جمعها الناس وحفظوها خلال قرون طويلة ثم هو فسّرها على ضوء الحاجات الاجتماعية القديمة والمعاصرة ثم قدمها لابناء العصر الحديث أداة للاصلاح الاجتماعي

٣ — الساسة الغر[1]

لنورد ملخص أثير البحر البريطاني وبطل معركة الطرف الاغر قول مأثور في تاريخ الاسطول البريطاني وهو «ان أسطولاً من السفن الحربية البريطانية خير المفاوضين في أوربا». ومن هذا القول المأثور — الذي وضعهُ مؤلف هذا الكتاب على صفحة على حدة أمام فصله الاول — استخرج المؤلف عنوان كتابه. وغرضه من فصوله ان يصف ماكان للاسطول البريطاني في البحر المتوسط من شأن في حوادث البلدان الواقعة على ضفاف هذا البحر من لدن عقدت الهدنة مع تركيا في أواخر الحرب الكبرى واحتل الحلفاء الاستانة الى نشوب الحرب الاهلية الاسبانية وما لازمها من اشتغال الرقابة على سواحل اسبانيا وحماية طرق المواصلات البحرية من جبل طارق الى قناة السويس

والمؤلف كان ضابطاً بحرياً في الاسطول من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٢ فلما خرج من الاسطول برتبة «لفتنت كوماندر» اتخذ الكتابة والتأليف صناعة له فكان المكاتب البحري لجريدة المورننج بوست مدى اربع سنوات قبل اندماجها في الديلي تلغراف. وهو الآن المكاتب البحري لجريدة «الصندي تيمس» ومقالاته في الموضوعات البحرية تنشر في أهم المجلات العالمية

تتجلى لك معرفته بشؤون الاسطول في التفصيلات الممتعة التي يطالعك بها في كل صفحة من صفحاته: أسماء السفن الحربية المنوعة التي اشتركت في مختلف الحوادث وتنقلها من قاعدة بحرية الى أخرى واسماء القواد والضباط واحوال السفن نفسها والروح المعنوية التي تسود رجالها واستعماله المصطلحات البحرية الفنية في المواقف الخاصة. ومع انهُ لا يشير ولا ناشر الكتاب يشير الى انهُ كان ضابطاً في أسطول البحر المتوسط وشهد بنفسه معظم الحوادث التي يصفها فانك لا تكاد تسير قليلاً في مطالعة الكتاب حتى يلوح لك انهُ كان ضابطاً فيه وذلك لدقة الوصف حتى تحس كأنك مما يصف يشهد

***

الفكرة الاساسية التي يقوم عليها الكتاب هي كما قلنا وصف اعمال الاسطول البريطاني في حوادث البلدان الواقعة على ضفاف البحر المتوسط من احتلال اسطنبول الى حريق ازمير الى حادثة كورفو الى ثورة فلسطين (١٩٣٦) الى حوادث انتزاع الحطير الذي لازم المشكلة الحبشية

(1) The Grey Diplomatists, by Lt-Comdr. Kenneth Edwards, Rich & Cowan London 10/-

الايطالية الى الحرب الاهلية في أسبانيا وصائن عدم التدخل والرقابة وحماية الموصلات البحرية بعد مؤتمر نيون

وعند المؤلف ان حادثة جزيرة كورفو كانت حدًّا فاصلاً بين الزمن الذي كان فيه الاسطول البريطاني في البحر المتوسط من الهيبة والمقام ما جعله سيد مياهه ، والزمن الذي بدأت فيه ايطاليا تظهر كقوة بحرية قوية تنازع بريطانيا سيادة البحر المتوسط وتطمح الى ان تخلفها فيه. ويذكر القراء ان سبب تلك الحادثة اغتيال لجنة الحدود الايطالية في جانينا بالبونان (٢٨ اغسطس سنة ١٩٢٣) وان المسيو موسوليني بعث ببلاغ نهائي شديد الى حكومة اثينا وبعظم الاسطول الايطالي الى مياه جزيرة كورفو فضرب الجزيرة بقنابله . وعندما سلمت السلطات اليونانية في كورفو أزلم فضيلة من البحارة الى البر فلما احتجت البونان الى عصبة الامم تكبَّر موسوليني للعصبة ولم يقم لها وزناً وأصرَّ على ان يمحو عار الاغتيال بعمل حاسم فكان له ما أراد عندما نقلت جثث القتلى على احدى المدرعات الايطالية إذ حُمِيلت السفن الحربية اليونانية في مرفأ قاليرون بكورفو على رفع العلم الايطالي تحيةً وتكفيراً . وتلا ذلك انسحاب القوات الايطالية من الجزيرة

ويلوح مما جاء في كتاب « السياسة البحرية » ان ضباط الاسطول البريطاني في البحر المتوسط أدركوا مغزى هذه الحادثة ولكن رجال السياسة البريطانية في لندن — البعيدين عن حوادث البحر المتوسط المهمكين بالمشكلات المعقدة التي أورثتهم إياها الحرب الكبرى — لم يدركوا ذلك المغزى او انهم أدركوه ولكنهم شغلوا عنه بما بدا لهم أخطر شأناً منه . وكذلك ولت الحكومات البريطانية المتتالية نقص الاسطول البريطاني بمعاهدات البحرية المختلفة وفرضت على رجال الاسطول ممارسة سياسة الاقتصاد والتوفير في كل باب من الابواب

هذه الخطة التي جرت عليها الحكومة البريطانية أضعفت الاسطول وحدَّت من كفاءة رجاله . وللكوماندر كنيث أدوردز فصلان هما اشنع والئم من كتابه يبسط فيهما هذه الناحية من الانحطاط في قوة بريطانيا البحرية وهو انحطاط مستمرٌّ نحو اثنتي عشرة سنة من بعد تصفية حادثة كورفو في سنة ١٩٢٣ الى تنازع الحبشي والبطالي في سنة ١٩٣٥.

فجرياً على خطة الاقتصاد المفروضة على الاسطول أصبحت السفن تقضي في المرفأ وقتاً أطول مما تقضي في عرض البحر وأصبحت المناورات تجري والسفن تسير بسرعة ١٢ عقدة في الساعة بدلاً من ان تسير بسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة وهي السرعة المتوقعة في أية معركة بحرية. وغني عن البيان ان الضابط الذي يقود سفينة حربية في معركة ما يسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة لا يستطيع ان يتدرب على حسن ادارتها في مناورات تسير فيها بسرعة ١٢ عقدة فقط.

ومن هنا احتمال نشوء خطإ في تنفيذ الخطط البحرية واحتمال حدوث الاصطدام وهو ما وقع فعلاً في بعض المناورات . ثم ان رجال الاسطول حافظوا على مستوى النظافة العالي الذي جرت عليه تقاليدهم ولكنهم حافظوا عليه محافظة سلبية لا ايجابية أي انهم امتنعوا عن كل ما يطلع لانهُ فرض على كل سفينة — في هذه الفترة — ان تصنع بنفسها الدهان المستعمل لتظيف النحاس والخشب وغيرها

ومن هذا القبيل النقص في رجال الاسطول وفي الذخيرة والعتاد الحربي ومن أبلغ الامثلة على ذلك انهُ لما نشبت الازمة الحبشية واضطرت الامبراطورية البريطانية ان تخرج من الاستيداع سفناً لتجهيزها واستعمالها كانت لا تجد ما يكفيها من البحارة المدربين في بعض الاحيان . أما الذخيرة فقد روى مؤلف هذا الكتاب ان الاسطول المرابط في مالطة في أغسطس ١٩٣٥ كان لا يملك من الذخيرة الاَّ ما يكفيه لمعركة واحدة — لو اضطرَّ الى الحرب — وبعد ذلك تصبح وحداته سفناً جوفاء (صفحة ١٦٨) . ومما يدلك على حقيقة هذه الحالة ان المؤلف جعل عنواني هذين الفصلين « تقهقر » ثمَّ « ثورة وفتنة » !

الاَّ ان حوادث الحبشة والتهديد الذي وجّه الى الامبراطورية البريطانية الذي كان منطوياً في تلك الحوادث ، أيقظ في الشعب البريطاني غريزة الدفاع عن النفس فبذلت الحكومة البريطانية جهداً جباراً لمواجهة الحالة — اذا اقتضى الامر — بأكبر قوَّة بحرية تستطيع ان تحشدها في البحر المتوسط ولو جردت القواعد الاخرى من الوحدات اللازمة لها

هذه الفصول أمتع ما في كتاب كله ممتع لانها تتصل بحوادث كان لمصر فيها شأن كبير من حيث الاستعداد الحربي الذي تمَّ في هذه البلاد لمواجهة الطوارىء ومن حيث اتخاذ مرفأ الاسكندرية مقرَّاً لاكبر جانب من الاسطول البريطاني بعد خروجه من مالطة ومن حيث ما قيل عن امكان انضمام جيش مصر والسودان الى جيوش الامبراطورية

ثم انها تحتوي على حادثة الطيارة الايطالية التي سقطت على طريقها من مالطة وهي في طريقها الى الاريتريه وما قيل عن « صندوق اسود » كان فيه ما يدين ايطاليا من أوراق ووثائق خطيرة الشأن فقد روى المؤلف ان هذا الصندوق نقل الى دار المفوض السامي البريطاني (السفارة البريطانية الآن) فرؤي ان الاوراق التي فيه يجب ان تصل الى لندن حالاً وبطريقة مأمونة . ثم رويت الصحف في اليوم التالي ان الكابتن بلاك احد مشهوري الطيارين الانكليز قام من لندن الى القاهرة بغية التفوق في سرعة الطيران الى جنوب افريقية . فلما وصل مطار المالطة قبل ان عطلاً أصاب طيارتهُ حالا يمضي في رحلته . فعاد الى لندن بدون توقف في اليوم التالي — وكان يحمل مسهُ الصندوق الاسود ! ثم هناك تفصيلات الرواية التي رويت عن نية السفير

موسوليني ان يضرب الاسطول البريطاني ضربة قاضية وهو محتشد في مالطة يوم ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٥ وكيف عرفت الحكومة البريطانية بذلك فلم تظهر انها عارفة ولكنها أصدرت الأمر بخروج الاسطول الى عرض البحر في ٣١ أغسطس وما روي عن غضب الدوتشي موسوليني عند ما علم بذلك . هذه الحوادث والروايات وعشرات غيرها تجعل الكتاب أحياناً كالرواية ، بل من المتعذر ان تحتوي أية رواية يخلقها الخيال على معنى التشاق والدراما أكثر مما تنطوي عليه هذه الدراما الواقعية

بعد ذلك جاءت ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ فكان للاسطول فيها شأن فصله المؤلف ثم نشبت الحرب الاهلية الاسبانية فتعين على الاسطول البريطاني القيام بأعمال الرقابة على سواحل أسبانيا تنفيذاً لخطة عدم التدخل بالاشتراك مع أساطيل ايطاليا وفرنسا والمانيا وحماية السفن التجارية البريطانية من سفن الفريقين المتنازعين وطيارتهما ، ثم استفحل خطر الغواصات وعقد مؤتمر نيون لعمل الاسطول البريطاني في البحر المتوسط جانباً كبيراً من تبعة حماية المواصلات البحرية فيه

وقد فصل المؤلف في هذه الفصول حادثة الاعتداء على الطراد الالماني «دويتشلند» وهو الاعتداء الذي أفضى الى ضرب ثغر المرية بالقنابل ثم بسط ما قيل عن اعتداء قصد به اغراق الطراد الالماني «ليبستس» وهو الذي أفضى الى انسحاب المانيا وإيطاليا من مشروع الرقابة على سواحل أسبانيا . ويلي هذا تفصيل حوادث مختلفة مما قرأناه في الصحف ولم نعرف ما كان يجري بشأنه في الوزارات والسفارات

واذا كان من المتعذر على كاتب هذه السطور ان يجمل في مقال ما فصله الكاتب في ٣٢١ صفحة فانه مقتنع بأن ما تقدم يكفي للدلالة على محتويات الكتاب واتجاهه العام

وعند الكاتب ان برنامج الدفاع القومي الذي جرت بريطانيا على تنفيذه بعد حوادث الحبشة على أثر الانتخاب العام الذي تم في نوفمبر سنة ١٩٣٥ قد أخذ يعيد الى الاسطول البريطاني سطوته الماضية وكفاءته التاريخية وهو بذلك يختم كتابه بفصل وازن بين الارصدة المختلفة في الموقف البحري في البحر المتوسط وخلص منه الى القول بأن موقف بريطانيا فيه قوي وبزداد قوة رويداً رويداً فقد بنى الاسطول البريطاني في سنوات ١٩٣٦ و١٩٣٧ و١٩٣٨ [illegible] في أية سنة تلت انتهاء الحرب الكبرى وسيتم في سنة ١٩٣٨ صنع أكبر عدد من البوارج صنع في سنة واحدة بعد سنة ١٩١٨ وستشهد سنة ١٩٤٠ انجاز البوارج الضخمة

وعنده كذلك ان فتح ايطاليا للحبشة يكون بريطانيا لا تريد الا تأمين مواصلاتها الامبراطورية في البحر المتوسط يجعلان مصالح بريطانيا متممة لمصالح ايطاليا وان موسوليني أدرك ذلك والامل معقود على التفاهم التام بين الدولتين

٤ — بريطانيا والحاكمون بأمرهم [1]

يكاد الباحث في شؤون اوربا الدولية يكون كالسائر في تيه لكثرة ما يواجههُ من المعاهدات والمحالفات والعهود وما يصطدم به من تيارات السياسة الظاهرة والخفية وما يطالعهُ من حقائق تتعلق بالشعوب وتوزيعها والخطط الاقتصادية وتشابكها ووجوه الخلاف في القواعد السياسية والاجتماعية والفلسفية التي تقوم عليها نظم الحكم وتستند اليها مرامي الحكام

فالباحث في حاجة الى دليل في هذا التيه . وكان كتّاب الفرنجة أدركوا هذه الحاجة فهبَّ المؤلفون الى التأليف ودور النشر الى النشر فتفحنا الاستاذ كول بكتابين وسمهما باسم الدليل احدهما لحالة اوربا الاقتصادية والآخر لحالتها السياسية . وطلع الصحافي الاميركي جون غنتر على العالم بكتابه « داخل اوربا » وهو الكتاب الذي نال شهرة عالمية واعيد طبعه مراراً كان مؤلفه في كل مرة يضيف اليه ما يجدُّ في حلبة النضال الدولي . ومن قبيل هذه الكتب كتب أخرى تختلف أسلوباً واتجاهاً ولكنها تماثل في الغرض الاساسي

وأنه يصعب على الباحث ان يجد مرشداً له في تيه السياسة الاوربية بعد الحرب الكبرى خيراً من الاستاذ سيتون وطسون استاذ تاريخ أوربا المتوسطة في جامعة لندن . فقد تخرّج في جامعة اكسفورد ودرس في برلين وباريس وفينا اكب خاصة على التوفر على شؤون اوربا المتوسطة وشرقها الجنوبي وله في ذلك مؤلفات نفيسة في تاريخ النمسا وهنغاريا والبلقان علاوة على اشتراكه في اصدار مجلة « اوربا الجديدة » و« المجلة السلافونية » . ثم انهُ ماون ماساريك وبنيش في السعي الى تحقيق استقلال تشيكوسلوفاكيا وربطهُ بأقطاب يوغوسلافيا ورومانيا اواصر صداقة متينة

واذا كان الاستاذ كول قد جعل كتابيه عرضاً تاريخيًّا لشؤون اوربا الاقتصادية والسياسية أصلهُ في القرن التاسع عشر وفروعه في العشرين واخرجهُ متسماً بسمة عقيدته الاشتراكية ، واذا كان الصحافي غنتر قد أدار فصول كتابه من حول اقطاب اوربا القابضين على ازمتها المتصرفين بمقدراتها وخيباتهم النفسية ، فان الاستاذ سيتون وطسون جعل كتابه بحثاً تاريخيًّا معاصراً يتناول الفترة التي تلت معاهدات الصلح . بل ان معظم فصول الكتاب يدور على الظاهرات السياسية التي طالعت الجمهور في العشر السنوات الاخيرة من مثل قيام النظام النازي في المانيا والفاشستي — ولاسيما حوادث الحبشة — في ايطاليا وتطور النظام السوفيتي في روسيا

والكتاب تلفت عليه وجهة نظر خاصة وهي بيان حالة هذه الدول الدكتاتورية الكبيرة وصلتها بالسياسة البريطانية . فالمؤلف بطبعه ونشأته يمقت الدكتاتورية نظراً وتطبيقاً ولكنهُ يعترف

(1) Britain and The Dictators, by R. W. Seton-Watson, Cambridge University Press. 1938.

بما فيها مما يستروي الجماهير ولا سيما في دور غلبت على امرها وقيدت بقيود ثقيلة كثيرة ثم ظفرت ولكن حرمت ما وعدت به كايطاليا او بلغ فيها مستوى الحياة الاجتماعية دون دركات الانحطاط كروسيا . فما تعثر عليه من الصراحة في بعض صفحاته مما يجعله أقرب الى الكاتب الصحافي منهُ الى الاستاذ المؤرخ ناشيء عن اعتقاده بأن مصير جامعة الامم البريطانية ومعها مصير المنشآت الاجتماعية الحرة في العالم معلق الآن في ميزان القدر . ولكن ذلك لا يمنعهُ عن بحث تسوية الحرب الكبرى بحثاً وافياً لبيان ما ارتكبتهُ الحكومة البريطانية وسائر الدول المنتصرة من الاخطاء ولا عن التساؤل عما يمكن القيام به لاصلاح الحال واجتناب الكارثة

والاستاذ سيتون وطسون دقيق الاستقصاء لا تفوته شاردة ولا واردة من أقوال الزعماء ولا من كتابات الصحف المسؤولة في مختلف بلدان اوربا . الاَّ ان علمهُ الواسع واحاطته التامة لا تضجرك فصورة الدراما واضحة في ذهنهِ والقلم سيال تحتهُ فريحة متوقدة ونفسهُ طيبة الحوادث الخطيرة نفسها

الجزء الاول من الكتاب في مقدمة توطئة لفصوله الرئيسية فهو يبحث ولاَّ الخطط السياسية البريطانية قبل الحرب الكبرى وقواعدها ثم خطة بريطانيا في أثناء القتال العالمي . ويلي ذلك تحليل دقيق لتسوية الحرب الكبرى

وفي بحثه لتسوية الحرب الكبرى يدفع عنها بعض ما وجه اليها من التهم ثم يأخذ عليها ما أخذ خطأ هي رفض الحلفاء ان يناقشوا الالمان في قواعد التسوية مما وسم معاهدة فرسايل بسمة الاملاء . ثم انهُ يأخذ عليها ربط ميثاق العصبة بمعاهدات الصلح ، وتحميل المانيا وحدها تبعة الحرب ، والقول بان المانيا لا تصلح لادارة شؤون المستعمرات ، والشدة المتناهية في فصوص التسوية الاقتصادية

ومما يستوقف النظر ان المؤلف المؤرخ لا يأخذ على تلك التسوية الحدود الجغرافية الجديدة التي وضعت بمقتضاها لانهُ يحسب انها حققت مبادىء « الاتوبرجيه » على قدر ما يمكن تحقيقها

وعند الاستاذ سيتون وطسون ان بريطانيا لا تحمل تبعة هذه الاخطاء وحدها . ولكنها تحمل وحدها تبعة خطأ آخر هو في نظره خطأ كبير . ذلك انهُ لما أبت الولايات المتحدة الاميركية الانتظام في معاهدة الضمان الثلاثية لضمان سلامة فرنسا صرفت بريطانيا نظرها عنها كذلك فأنشأت في فرنسا شعوراً بالقلق على سلامتها مما حملها على السعي لفوز بحلفاء اخرين في أوربا وجعلها تبدو في مظهر الراغب في السيطرة على أوربا والاحداق بألمانيا . وهذا سلب بريطانيا جانباً كبيراً من النفوذ في مجامع فرنسا كانت تستطيع — لو قبلت معاهدة الضمان — ان تستعمله وتصرفه الى ما تراه خيراً

وليس في وسع الكاتب ان يلخص في فصل موجز أهم ما في الكتاب فكل صفحة من صفحاته تفصل شؤوناً تتصل بحياتنا اليومية من سياسية واقتصادية سواء في أوربا كلها أو في مصر. الاّ ان الكتاب يتناول في جملة الدول الدكتاتورية الكبيرة في اوربا وهي المانيا وايطاليا وروسيا. ولكلٍّ منها فصل مسهب. وأطولها الفصل الخاص بألمانيا لانهُ عرج فيه على تحليل المبادىء الايديولوجية التي يستند اليها النظام النازي وشيعته المتحكمة

تطالع هذه الفصول فتخرج منها بأن المؤلف دمقراطي النزعة يكره الاستبداد والتحكم سواء أمن اليمين كان أم من اليسار. وهذا الرأي يلون بعض ما يكتب ولا سيما نهاية الفصول عند ما يريد الخلوص الى نتيجة عامة. أما العرض الذي تشتمل عليه أكثر صفحات هذه الفصول فتنزّهُ الى حد بعيد عن نزعة المؤلف الخاصة

الاّ انهُ مع كرهه للنظام الدكتاتوري في روسيا يرى ان روسيا لا تهدد السلام العالمي ويدافع عن عقد الميثاق الفرنسوي السوفيتي في سنة ١٩٣٥ لانهُ يرى انهُ اذا عزلت روسيا عزلاً فعالاً عن أوربا فتسلح المانيا والريبة التي تحيط بموقف ايطاليا يجعلان فرنسا في موقف شديد الخطر وهو يقول « ان الغرض من الميثاق المحافظة على توازن القوى في أوربا وهو ما يزعم هتلر انهُ يبغيه . . . »

أما فصله عن ايطاليا فأشد لهجة من سائر الفصول وعنده على ما جاء في آخر الفصل انهُ في الاتصال بموسوليني ومعاملته يجب ان نحيد عن التأثر بالشعور وان ندرس ميكيافللي وان نعلم ان موسوليني يحتقر الساسة البريطانيين ويعتقد بأن النزعة السلمية قد أضعفت الشعب البريطاني وان الامبراطورية آخذة في الانحلال وأنهُ يأمل ان يتبوأ ما يحل محلها في البحر المتوسط وإفريقية والشرق الاوسط وانهُ معادٍ للنظم النيابية الحرة وفكرة الحرية الفردية والسياسة السلمية ونظام السلامة الاجماعية المثل في جنيف

وفي الكتاب بحث واف في مشكلة الاقليات في أوربا وما تشكو منهُ وعنده ان الاقليات الالمانية في تشيكوسلوفاكيا كانت أحسن حالاً من سائر الاقليات الاوربية المختلفة

وقد أُلحق بالكتاب فصلان احدهما خاص بأسبانيا وسياسة بريطانيا فيها والآخر بالنمسا وحادث ضمها الى الرايخ الثالث في شهر مارس الماضي

***

والخلاصة ان الكتاب جدير بأن يكون على مكتب كل مثقف لشؤون أوربا لما يزخر بهِ من الحقائق المرتبة المنظمة في فصوله. انما يجب على من يطالع النتائج التي يخلص اليها المؤلف من عرضه للحوادث والحقائق ان يفعل ذلك وهو عالم بوجهة نظره الدمقراطية